وأىُّ أمر يحتاج لحكم ؛ فإما أن تجده مُفصَّلاً فى القرآن ، أو نسأل فيه أهل الذكر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فاسألوا أهل الذكر[1] إن كنتم لا تعلمون (٧) ﴾ [الأنبياء]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾

و « رُبَّ » حرف يستعمل للتقليل ، ويُستعمل أيضاً للتكثير على حَسْب ما يأتى من بعده ، وهو حَرْفٌ الأصل فيه أن يدخلَ على المفرد . ونحن نقول « رُبَّ أخٍ لك لم تلدْه أمك » وذلك للتقليل ، مثلما نقول « ربما ينجح الكسول » .

ولكن لو قُلْنا « ربما ينجح الذكى » فهذا للتكثير ، وفى هذا استعمال للشىء فى نقيضه ، إيقاظاً للعقل كى ينتبه .

وهنا جاء الحق سبحانه :

بـ « رُب » ومعها حرف « ما » ومن بعدهما فعل[2] . ومن العيب أن تقول : إن « ما » هنا زائدة ؛ ذلك أن المتكلم هو ربُّ كل العباد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ربما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٢) ﴾ [الحجر]

---

(١) الذكر : القرآن والكتب المنزلة كلها . أى : اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كل الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ [تفسير ابن كثير ١/ ١٧٤] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٧٢٥) : « رُبَّ لا تدخل على الفعل ، فإذا لحقتها « ما » هيأتها للدخول على الفعل » . وقال ابن هشام فى « مغنى اللبيب » (١/ ١٢٠) : « إذا زيدت « ما » بعد « رب » ، فالغالب أن تكفها عن العمل ، وأن تهيئها للدخول على الجمل الفعلية ، وأن يكون الفعل ماضياً لفظاً ومعنى » .

فهل سيأتى وقت يتمنى فيه أهل الكفر أنْ يُسلموا ؟ إن « يودّ » تعنى « يحب » و « يميل » و « يتمنى » ، وكل شىء تميل إليه وتتمناه يسمى « طلب » .

ويقال فى اللغة : إن طلبت أمراً يمكن أن يتحقق ، ويمكن ألاّ يتحقق ؛ فإنْ قُلْتَ : « يا ليت الشبابَ يعود يوماً » فهذا طَلبٌ لا يمكن أن يتحققَ ؛ لذلك يُقال إنه « تمنى » . وإنْ قلت « لعلّى أزور فلاناً » فهذا يُسمّى رجاء ؛ لأنه من الممكن أن تزور فلاناً . وقد تقول : « كم عندك ؟ » بهدف أن تعرف الصورة الذهنية لمَنْ يجلس إليه مَنْ تسأله هذا السؤال ، وهذا يُسمّى استفهاماً .

وهكذا إنْ كنت قد طلبتَ عزيزاً لا يُنال فهو تمنٍّ ؛ وإن كنت قد طلبتَ ما يمكن أن يُنَال فهو الترجى ، وإنْ كنتَ قد طلبتَ صورته لا حقيقته فهو استفهام ، ولكن إنْ طلبت حقيقة الشىء ؛ فأنت تطلبه كى لا تفعل الفعل .

والطلب هنا فى هذه الآية ؛ يقول :

﴿ رُبَمَا يوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ﴾ [الحجر]

فهل يتأتّى هذا الطلب ؟

ولْنَر متى يودُّون ذلك . إن ذلك التمنّى سوف يحدث إنْ وقعتْ لهم أحداثٌ تنزع منهم العناد ؛ فيأخذون المسائل بالمقاييس الحقيقية .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَجَحَدُوا[1] بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. (١٤) ﴾ [النمل]

---

(١) جحد الحق : أنكره وهو يعلمه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وقد حدث لهم حين وقعت غزوة بدر ، ونال منهم المسلمون الغنائم أنْ قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، وأخذنا تلك الغنائم[1] .

أى : أن هذا التمنّى قد حدث فى الدنيا ، ولسوف يحدث هذا عند موت أحدهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

ويعلق الحق سبحانه على هذا القول :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وسيتمنون أيضاً أن يكونوا مسلمين ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

إذن : فسيأتى وقت يتمنّى فيه الكفار أن يكونوا مسلمين ، إذَا مَا عاينوا شيئاً ينزع منهم جحودهم وعنادهم ، ويقول لهم : إن الحياة التى كنتم تتمسَّكون بها فانية ؛ ولكنكم تطلبون أن تكونوا مسلمين وقت أنْ زالَ التكليف ، وقد فات الأوان .

ويكفى المسلمين فخْراً أنْ كانوا على دين الله ، واستمسكوا بالتكليف ، ويكفيكم عاراً أنْ خسرْتم هذا الخسران المبين ، وتتحسروا على أنكم لم تكونوا مسلمين .

---

(١) أورد السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦١) عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : « ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم حين عرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ » .

وفى اليوم الآخر يُعذِّب الحق سبحانه العصاة من المسلمين الذين لم يتوبوا من ذنوبهم ، ولم يستغفروا الحق سبحانه ، أو ممَّنْ لم يغفر لهم سبحانه وتعالى ذنوبهم ؛ لعدم إخلاص النية وحُسْن الطوية عند الاستغفار ، ويدخل فى ذلك أهل النفاق مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ .. (٨٠) ﴾ [التوبة]

فيدخلون النار ليأخذوا قدراً من العذاب على قدر ما عصوا ، وينظر لهم الكفار قائلين :

ما أغنتْ عنكم لا إله إلا الله شيئاً ، فأنتم معنا فى النار .

ويطلع الحق سبحانه على ذلك فيغار على كل مَنْ قال لا إله إلا الله ؛ فيقول : أخرجوهم وطهِّروهم وعُودوا بهم إلى الجنة ، وحينئذ يقول الكافرون : يا ليتنا كنا مسلمين ، لنخرج من النار ، ونلحق بأهل الجنة[1] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ﴾

و (ذرهم) أمْر بأن يدعهم ويتركهم . وسبحانه قال مرة (ذرهم) ، ومرة قال :

﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِى النَّعْمَةِ[2] .. (١١) ﴾ [المزمل]

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦٢) من حديث أبى موسى الأشعرى ، وعزاه لابن أبى عاصم فى السنة ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور .

(٢) النَّعْمة : التنعيم ، والمسرة والفرح والترفُّه . [لسان العرب - مادة : نعم] .

أى : اتركهم لى ، فأنا الذى أعاقبهم ، وأنا الذى أعلم أجلَ الإمهال ، وأجلَ العقوبة .

ويستعمل من « ذَرْهم » فعل مضارع هو « يَذَر » ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ ويذرك وآلهتك .. (١٢٧) ﴾ [الأعراف]

ولم يستعمل منها فى اللغة فعْل ماضٍ ، إلا فيما رُوِى من حديث رسول الله ﷺ « ذروا اليمن ما ذَروكم » ، أى : اتركوهم ما تركوكم .

ويشارك فى هذا الفعل فعل آخر هو « دَعْ » بمعنى « اترك » . وقيل : أهملت العرب ماضى « يدع » و « يذر » إلا فى قراءة[1] فى قول الحق سبحانه :

﴿ ما ودَعك ربُّك وما قلىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ذرْهُمْ يأكُلُوا ويتمتَّعُوا .. (٣) ﴾ [الحجر]

ونحن أيضاً نأكل ، وهناك فرْق بين الأكل كوقود للحركة وبين الأكل كلذَّة وتمتُّع ، والحيوانات تأكل لتأخذ الطاقة بدليل أنها حين تشبع ؛ لا يستطيع أحد أنْ يُجبرها على أكل عود برسيم زائد .

أما الإنسان فبعد أن يأكل ويغسل يديه ؛ ثم يرى صنْفاً جديداً

---

(١) هى قراءة عروة بن الزبير . والمعنى فيهما واحد (ودَّعك ، ودعك) . أى : ما تركك ربك . [لسان العرب ـ مادة : ودع] .

من الطعام فهو يمدُّ يده ليأكلَ منه ؛ ذلك أن الإنسان يأكل شهوةً ومتعةً ، بجانب أنه يأكل كوقود للحركة .

والفرق بيننا وبينهم أننا نأكل لتتكوَّن عندنا الطاقة ؛ فإنْ جاءت اللذة مع الطعام فأهلاً بها ؛ ذلك أننا في بعض الأحيان نأكل ونتلذذ ، لكن الطعام لا يمرى[1] علينا ؛ بل يُتعبنا ؛ فنطلب المُهْضِمات من مياه غازية وأدوية .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول : « بحسْب ابن آدم لُقيْمات يُقمْنَ صُلْبه »[2] .

أي : أنه ﷺ ينهانا عن أن نأكل بالشهوة واللذة فقط .

ولنلحظ الفارق بين طعام الدنيا وطعام الجنة في الآخرة ؛ فهناك سوف نأكل الطعام الذي نستلذُّ به ويَمْرى علينا ؛ بينما نحن نُضطر في الدنيا - في بعض الأحيان - أن نأكلَ الطعام بدون ملْح ومسلوقاً كي يحفظ لنا الصحة ؛ ولا يُتعبنا ؛ وهو أكل مرىء وليس طعاماً هنيئاً ، ولكن طعام الآخرة هَنِيءٌ ومَرِيءٌ .

وعلى ذلك نفهم قول الحق سبحانه :

﴿ ذَرْهُمْ يأكُلُوا ويتمتَّعُوا . . (٣) ﴾ [الحجر]

أي : أن يأكلوا أكْلاً مقصوداً لذات اللذَّة فقط .

---

(١) طعام مرىء هنىء : حميد المغبة بيِّن المراءة . ومرُء الطعام : سهل في الحلق وحُمدت عاقبته وخلا من التنغيص . [القاموس القويم ٢ / ٢٢٠] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٢/٤) وابن ماجة في سننه (٣٣٤٩) من حديث المقدام بن معد يكرب . وتمامه : « ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن ، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه ، فإن غلبت الآدمي نفسه : فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس » .

ويقول الحق سبحانه متابعاً :

﴿ ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ (٣) ﴾ [الحجر]

أى : أن يَنصبوا لأنفسهم غايات سعيدة ؛ تُلهيهم عن وسيلة ينتفعون بها ؛ ولذلك يقول المثل العربى : « الأمل بدون عمل تلصُّص » فما دُمْت تأمل أملاً ؛ فلا بُدَّ أن تخدمه بالعمل لتحققه .

ولكن المثل على الأمل الخادع هو ما جاء به الحق سبحانه على لسان مَنْ غَرَّتْه النعمة ، فقال :

﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. (٣٦) ﴾ [الكهف]

ولكن الساعة ستقوم رَغْماً عن أنْف الآمال الكاذبة ، والسراب المخادع .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ ويُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر]

وكلمة (سوف) تدل على أن الزمن مُتراخٍ قليلاً ؛ فالأفعال مثل « يعلم » تعنى أن الإنسان قد يعلم الآن ؛ ويعلم من بَعْد الآن بوقت قصير ، أما حين نقول « سوف يعلم » فتشمل كل الأزمنة .

فالنصر يتحقق للمؤمنين بإذن من الله دائماً ؛ أما غير المؤمنين فلسوف يتمنَّوْنَ الإيمان ؛ كما قُلْنا وأوضحنا من قبل .

وهكذا نرى أن قَوْله :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [الحجر]

يشمل كُلّ الأزمنة . وقد صنع الحق سبحانه فى الدنيا أشياء تُؤذن بصدْق وَعْده ، والذين يظنُّون أنهم يسيطرون على كُلّ الحياة يُفاجئهم زلزال ؛ فيهدم كل شيء ، على الرغم من التقدُّم فيما يُسمَّى « الاستشعار عن بُعْد » وغير ذلك من فروع العلم التطبيقى .

وفى نفس الوقت نرى الحمير التى نتهمها بأنها لا تفهم شيئاً تهُبُّ - هى والماشية - من قبل الزلزال لتخرج إلى الخلاء بعيداً عن الحظائر التى قد تتهدم عليها ، وفى مثل هذا التصرُّف الغريزى عند الحيوانات تحطيمٌ وأدب للغرور الإنسانى ، فمهما قاده الغرور ، وادعى أنه مالك لناصية العلم ، فهو ما زال جاهلاً وجهولاً .

وكذلك نجد منْ يقول عن البلاد المُمطرة : إنها بلاد لا ينقطع ماؤها ، لذلك لا تنقطع خُضْرتها . ثم يصيب تلك البلادَ جفافٌ لا تعرف له سبباً ، وفى كل ذلك تنبيهٌ للبشر كى لا يقعوا أسْرى للغرور .

ويقول سبحانه من بعد ذلك ضارباً لهم المثل :

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴾ (٤)

أى : أنه سبحانه لا يأمر بهلاك أىِّ قرية إلا فى الأجل المكتوب لها . ويجعلها من المَثل التى يراها منْ يأتى بعدها لعله يتعظ ويتعرَّف على حقيقة الإيمان .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وضرب اللهُ مثلا قريةً كانتْ آمنةً مُطْمئنةً يأْتيها رزْقُها رغداً[١] منْ كُلِّ مكانٍ فكفرتْ[٢] بأنْعُمِ الله فأذاقها اللهُ لباس الْجُوعِ والْخوْفِ بما كانُوا يصْنعُون (١١٢) ﴾ [النحل]

والمثَل القريب من الذاكرة « لبنان » التى عاشت إلى ما قبل الخمسينيات كبلد لا تجد فيه فندقاً لائقاً ، ثم ازدهرتْ وانتعشتْ فى الستينيات والسبعينيات ؛ واستشرى فيها الفساد ؛ فقال أهل المعرفة بالله : « لا بُدَّ أن يصيبها ما يصيب القرى الكافرة بأنعُمِ الله » .

وقد حدث ذلك وقامت فيها الحرب الأهلية ، وانطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿ ويُذيق بعْضكُم بأْس بعْضٍ .. (٦٥) ﴾ [الأنعام]

وهذا ما يحدث فى الدنيا ، وهى مُقدِّمات تُؤكِّد صدْق ما سوف يحدث فى الآخرة .

وسبحانه القائل :

﴿ وإن مّن قرْيةٍ إلاَّ نحْنُ مُهْلكُوها قبْل يوْم الْقيامة أوْ مُعذِّبُوها عذاباً شديداً كان ذلك فى الْكتاب مسْطُوراً (٥٨) ﴾ [الإسراء]

وبطبيعة الحال ؛ فهذا ما يحدث لأىِّ قرية ظالم أهلُها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم مثْقال ذرَّة .

وأذكر أن تفسير النسفى[٣] قد صُودر فى عصر سابق ؛ لأن

---

(١) رغد العيش اتسع وطاب . والرغْد الكثير الواسع الذى لا يُعييك من مال أو ماء أو عيش أو كلأ . [لسان العرب ـ مادة رغد] .

(٢) كُفْر النعمة جحودها . كفر النعمة جحدها ولم يشكرها ولم يشكر من قدمها له ، أو كان سبباً فيها بل أنكر فضله [القاموس القويم ٢/١٦٤] .

(٣) هو أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى ، فقيه حنفى ، مفسر من أهل إيذج ووفاته فيها . نسبته إلى « نسف » ببلاد السند ، بين جيحون وسمرقند . توفى عام (٧١٠ هـ) (الأعلام للزركلى ٤/٦٧) .

صاحب التفسير قال عند تفسيره لهذه الآية : « حدثنى فلان عن فلان أن البلد الفلانى سيحصل فيه كذا ؛ والبلد الآخر سوف يحدث فيه كذا إلى أن جاء إلى مصر وقال بالنص : ويدخل مصر رجل من جهينة ، فويْل لأهلها ، ووَيْل لأهل سوريا ، ووَيْل لأهل الرَّمْلة ، ووَيْل لأهل فلسطين ، ولا يدخل بيت المقدس » .

وما دام الحق سبحانه قد قال :

﴿ كان ذَلكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾ [الإسراء]

فهو يُعلِّم بعضاً من خلقه بعضاً من أسراره ، فلا مانعَ من أن نرى بعضاً من تلك الأسرار على ألسنتهم . وحين ذاعت تلك الحكاية ، وقالوها للرئيس الذى كان موجوداً ، وقالوا له : أنت من جهينة وهم يقصدونك . صُودر تفسير النسفى .

إذن : فقد ترك الحق سبحانه لنا فى الدنيا مثلاً يؤكد صدْقه فيما يحكيه عن الوعيد لبعض القرى حتى نُصدِّق ما يمكن أن يكون بعد يوم القيامة . وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وما أهْلَكْنَا من قَرْيَةٍ إلاَّ ولَهَا كتابٌ مَّعْلُومٌ (٤) ﴾ [الحجر]

فليس لأحد أن يقول : « إن ذلك لم يحدث للبلد الفلانى » لأن كُلَّ أمْر له أجَل .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَئْخِرُونَ ۝٥ ﴾

أي : أنه سبحانه قد جعل لكل أمة أجلاً ، وغاية ، فإذا ما انتهى الأجل المعلوم جاءتْ نهايتها ؛ فلا كائنَ يتقدَّم على أجله ، ولا أحدَ يتأخر عن موعد نهايته .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾

وهم هنا يسخرون من الرسول ومن القرآن ؛ ذلك أنهم لو كانوا يؤمنون بالقرآن وبالرسول ؛ لَمَا وصفوه ﷺ بالجنون . والذين قالوا ذلك هم أربعة من كبار الكفار : عبد الله بن أبي أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة . وقيل عن ابن عباس : إنهم الوليد بن المغيرة المخزومي ؛ وحبيب بن عمرو الثقفي . وقيل عن مجاهد : إنهم عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل .

والظاهر من قولهم هو التناقض الواضح ؛ فَهُمْ - شاؤا أم أبَوْا - يعترفون بالقرآن بأنه « ذكْر » ، والذِّكْر في اللغة له عدة مَعَانٍ ، منها الشرف ، وقد أُطلق على القرآن ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وإنَّهُ لَذكْرٌ لَكَ ولقَوْمِكَ وسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف]

وسبق لهم أن تلمَّسُوا في هذا القرآن هنات ؛ فلم يجدوا ، فكيف يَصفون مَنْ نُزِّل عليه هذا القرآن بالجنون ؛ وهُم الذين شهدوا له من قَبْلُ بالصدق والأمانة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يُنصف رسوله ﷺ فقال :

﴿ وإنَّكَ لعلىٰ خُلُقٍ عظيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]

وهم فى اتهامهم للرسول ﷺ لم يلتفتوا إلى أنهم قد خاطبوه بقولهم : (يـأيها) ، وهو خطاب يتطابق مع نفس الخطاب الذى يخاطبه به الله ؛ وهكذا أجرى الحق سبحانه على ألسنتهم توقيراً واحتراماً للرسول ﷺ دون أنْ يشعروا ، وذلك من مشيئته سبحانه حين يُنطق أهلَ العناد بالحق دون أن يشعروا .

فقد قال الحق سبحانه عن المنافقين أنهم قالوا :

﴿ لا تُنفقُوا علىٰ منْ عند رسُول الله حتىٰ ينفضُوا..(٧) ﴾ [المنافقون]

أى : لا تنفقوا على مَنْ عند النبى ﷺ ، حتى يجوعوا ، فينفضوا من حوله . هم يقولون عنه « رسول الله » ، فهل آمنوا بذلك ؟ أم أن هذا من غلبة الحق ؟

ويتابع سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٧ ﴾

ونعلم أن فى اللغة ألفاظاً تدل على الحثّ وعلى رغبة المُتكلّم فى أن يُوجد السامع ما بعدها ، ومن هذه الألفاظ « لولا » و « لوما » . و « لولا » تجيء للتمنّي ورغبة ما يكون بعدها ، وإن كان ما بعدها نفياً فهو رغبة منك ألا يكون ، مثل قولك « لو جاء زيد لأكرمته » لكن لمجيء لم يحدث ، وكذلك الإكرام .

وقد قال الكفارُ هنا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ لوْ ما تأتينا بالْملائكة..(٧) ﴾ [الحجر]

وسبق لهم أنْ قالوا :

﴿ لوْلا أُنزل إليْه ملكٌ فيكُون معهُ نذيرًا (٧) ﴾ [الفرقان]

وكأنهم يطلبون نزول ملَك مع الرسول ليُؤنسه وليُصدِّقوا أنه رسول من عند الله ، فهل كان تصديقهم المُعلَّق على هذا الشرط ؛ تصديقاً للرسول ، أم تصديقاً للملَك ؟

وسبق أن تناول القرآنُ هذا الأمرَ في قول الحق سبحانه :

﴿ وما منع النَّاس أن يُؤْمنُوا إذْ جاءهُمُ الْهُدىٰ إلاَّ أن قالُوا أبعث اللَّهُ بشرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

وكأنهم علَّقوا الإيمان بالرسول على شرْط أنه ليس ملكاً ؛ بل من صنف البشر ، وجاء الردّ عليهم :

﴿ لَّوْ كان في الأرْض ملائكةٌ يمْشُون مُطْمئنِّين لنزَّلْنا عليْهم مِّن السَّماء ملكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

إذن : فلو نزل رسول من السماء ملَكاً ؛ لَمَا استطاع أن يمشي في الأرض مطمئناً ؛ فضلاً عن أنه لا يمكن أن يكون أُسْوة وقدوة للبشر ؛ لأنه من جنس آخر غير البشر .

ولو نزل عليهم ملك كما زعموا ، وقال لهم : افعل ولا تفعل ، واستقيموا واستغفروا ، وسبِّحوه بُكْرة وأصيلاً ، لَردُّوا عليه قائلين : أنت ملَك ينطبق عليك قول الحق :

﴿ لاَّ يعْصُون اللَّه ما أمرهُمْ ويفْعلُون ما يُؤْمرُون (٦) ﴾ [التحريم]

وأنت لا تصلح أُسْوة لنا . ثم كيف يتكلمون مع ملَك وهو من طبيعة مختلفة ، ولن يستطيع البشر أن يرتفعوا إلى مُستْواه ليأخذوا

منه ، وهو لن يستطيع أن ينزلَ إلى مستوى البشرية ليأخذوا منه ؛ ولذلك شاء الحق سبحانه أن يرسل الرسول من جنس البشر .

وهكذا أبطل الحق سبحانه حُجَتهم فى عدم الإيمان بالرسول ؛ لأنه لم يأت من جنس الملائكة ؛ وأبطل حُجَتهم فى طلبهم أن ينزل مع الرسول ملائكة ؛ ليُؤيّدوه فى صدْق بلاغه عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ[1] وَمَا كَانُوٓاْ إِذًا مُّنظَرِينَ ۝٨ ﴾

وهكذا يُعلِّمنا الحق سبحانه أنه لا يُنزِّل الملائكة إلا بمشيئة حكمته سبحانه ، ولو نزل الملَك ـ كما طلبوا ـ لمساعدة رسول الله ﷺ فى البلاغ عن الله ؛ فالملَك إما أن يكون على هيئة البشر ؛ فلن يستطيعوا تمييز الملَك من البشر ، وإما أن يكون على هيئة الملك ، فلا يستطيع البشر أنْ يروْه ؛ وإلاَّ هلكوا .

ذلك أن البشر لا تستطيع تحمُّل التواصل مع القوة التى أودعها الله فى الملائكة .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ ولوْ أنزلْنا ملَكًا لَقُضى الأمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُون[2] (٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٢٧٢٨) « معنى ﴿ إلاَّ بالحق .. (٨) ﴾ [الحجر] إلا بالقرآن . وقيل : بالرسالة ، عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا » .

(٢) أنظره : أخره وأمهله وتأنى عليه . [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

ولو جعله الحق سبحانه فى هيئة البشر وتواصلوا معه لالتبس عليهم الأمر ، ولظنُّوا أن الملَك بشرٌ مثلهم .

وفى هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون (٩) ﴾ [الأنعام]

لم يُنزل الحق سبحانه الملائكة : لأنه لم يشأ أن يُهلكهم ورسولُ الله فيهم ، فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وقد آمن معظمهم ودخلوا فى دين الله من بعد ذلك واستغفروا لذنوبهم ، وكان الله غفوراً رحيماً ؛ لأن الإسلام يَجُبُّ[1] ما قبله .

وحين ننظر إلى صدْر الآية نجد أنه سبحانه قال :

﴿ ما نُنزلُ الملائكة إلاَّ بالحق .. (٨) ﴾ [الحجر]

فلو نزلت الملائكة لكان عذاباً لهم ، فالحق سبحانه إذا أعطى قوماً آية طلبوها ، فإما أن يؤمنوا ، وإما أن يهلكهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وما منعنا أن نُرسل بالآيات إلاَّ أن كذَّب بها الأولون (٥٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والمعاصى والذنوب . [قاله ابن منظور فى لسان العرب - مادة : جبب] .